مستقبل روسيا

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

من الوثائق التاريخية النادرة فى اللغة العربية ، رسالة منسوبة إلى الفيلسوف أرسطو ، يقال إنها كانت جواباً منه على سؤال وجهه إليه تلميذه الإسكندر المقدونى ، مستشيراً إياه فى قتل أمراء فارس بعد فتحها ، وفى إحلال غيرهم من قادة اليونان محلهم فى إدارة شئون المملكة الفارسية . فأجابه الفيلسوف بتلك الرسالة ، محذراً إياه من مغبة هذا العمل ، وناصحاً له بالإبقاء على أمراء البلاد وسياستهم على النحو الذى أملاه ، وهو كما يلى من النص العربى البليغ :

قال الفيلسوف . (. . . إنك إن تقتل أشرافهم ، تخلف الوضعاء على أعقابهم ، وتورث سفلتهم منازل عليتهم ، وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم . ولم يبتل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم وأشد توهيناً لسلطانهم من غلبة السفلة وذل الوجوه . فاحذر الحذر كله ، أن تمكن تلك الطبقة من الغلبة والحركة . فإنهم إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجم ، دهمهم منه مالا روية فيه ولا بقية

معه . فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من أولئك العظماء والأحرار ، ووزع بينهم مملكتهم ، وألزم إسم الملك كل من وليته منهم ، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه ، فإن المتسمى بالملك لازم لإسمه ، والمعقود التاج على رأسه لايخضع لغيره . فليس ينشب ذلك أن يوقع كل ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك ، وتفاخراً بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، وأوتارهم فيك ، ويعود حربهم لك حرباً بينهم ، وحنقهم عليك حنقا منهم على أنفسهم . ثم لايزدادون فى ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها إستقامة ، إن دنوت منهم دنوا لك ، وإن نأيت عنهم تعززوا حتى يثب من ملك منهم على جاره باسمك ، ويسترهبه بجندك . وفى ذلك شاغل لهم عنك ، وأمان لإحداثهم بعدك ، وإن كان لا أمان للدهر ولا ثقة بالأيام . وقد أديت إلى الملك مارأيته لى حظاً وعلىّ حقا من إجابتى إياه وإلى ماسألنى عنه ومحضته النصيحة فيه . . .) .

* * *

هذه الوثيقة النفيسة تنسب إلى أرسطو ، كما نسبت إليه آثار كثيرة ، على غير ثقة بصحة هذه النسبة ، أو على غير ثقة بصدور هذه الآثار جميعاً من قلم أرسطو ، إلا أن يكون ذلك منقولا عن لسانه بأقلام تلاميذه ومريديه . ومهما يكن من صحة نسبة الرسالة إلى قلمه أو إلى لسانه ، فالأمر الذي لاشك فيه أنها رسالة جديرة بفكر عظيم من طبقة

ذلك الفيلسوف القليل النظير فى عالم البحث والتفكير . ومما لاشك فيه كذلك أن الرسالة قد اشتملت على خطة واقعية جرت عليها دول الفتوح والاستعمار من قديم العصور ، وفى مقدمتها دولة الرومان الغربية . التى استفادت فى نظم السياسة والإدارة الحكومية ، من تجارب الفاتحين قبل عصرها الذهبى بعدة عصور ، فقد كان الرومان فى عصرهم الذهبى حريصين على اتباع تلك الخطة ، يمنحون ما استطاعوا إلى استبقاء ذوى الرآسة والزعامة فى البلاد التى يفتحونها على عروشهم تابعين لهم فى المسائل الجليلة ، مستقلين عنهم فى شئونهم الداخلية . وكثيراً ما كانوا يستغنون عن حكم البلاد حكما مباشراً بإملاء نظم الحكم وقوانين التشريع على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ، فكانت طاعة القوانين الرومانية بمثابة طاعة الدولة الرومانية فى كثير من الأحوال .

ولم تزل هذه الخطة مرعية ، على عمد أوعلى غير عمد ، إلى العصور المتأخرة من عهود الاستعمار الحديث . . فسواء اطلع ساسة الدولة البريطانية على رأى أرسطو ، أو اطلعوا على سياسة الاسكندر فى المملكة الفارسية بعد فتحها ، فالأمر الواضح أنهم سلكوا تلك الخطة على غاية من الدقة فى حكمهم للأقاليم الهندية ، وغيرها من الأقاليم التى فتحوها أو تغلبوا عليها . فقد تركوا للراجات الهنود عروشهم ومراسم إماراتهم ، وفرقوا بين أقدارهم ومظاهر تحيتهم ، حتى حدث بينهم ماقال الفيلسوف أرسطو — إن صحت نسبة الرسالة — انه خليق أن يحدث بينهم فى

علاقة بعضهم ببعض ، وفى علاقتهم جميعاً بالأسكندر ودولته المتسلطة . وأتى حين من الدهر كان هؤلاء الراجات فيه أحرص على بقاء السلطان الأجنبي من ذلك السلطان نفسه ، فحاربوا من طلب الاستقلال عن الدولة البريطانية ، وسالموا من سالمها ، وشذ منهم بعض الأمراء لأسباب عارضة ، فاتفقوا مع الثائرين على الدولة البريطانية إلى حين ، ولكن هذا الاتفاق لم يبلغ قط مبلغ الإخلاص فى استنهاض الشعب للحرية الصحيحة ، والمشاركة فى توجيه سياسة البلاد .

هذه الخطة تنفع الحاكم المتسلط على الأمم المغلوبة ، وترمى إلى استبقاء السلطان فى يده ، بالتفرقة بين أعوانه من أبناء تلك الأمم ، ولم تزل مرعية كما أسلفنا إلى عهود الاستعمار الحديث . ولكنها قد انقلبت من النقيض إلى النقيض على أيدى أناس آخرين من مستعمرى هذا العهد الأخير ، وهم حكام روسيا فى عهد الشيوعية .

هؤلاء الحكام مستعمرون أو متغلبون ومسلطون على رعاياهم ، سواء حكموا شعوباً من بنى جلدتهم ، أو حكموا شعوباً غريبة عنهم لا تمت إليهم بوشيجة من وشائج الجنس أو اللغة . وخطتهم فى إخضاع رعاياهم تناقض خطط المستعمرين من قبلهم وتقلبها رأسا على عقب ، ولكن فى الواسطة دون النتيجة . إذ كانت النتيجة واحدة ، وهى القضاء

على قوة المقاومة بين الرعايا المحكومين واستبقاء السلطان كله بين أيدى المتغلبين المتسلطين ، على الرغم من أولئك الرعايا . فإذا كانت خطة الاسكندر قائمة على حفظ السلطان فى يده ، بالأبقاء على الأمراء والزعماء بين الشعوب المغلوبة — فهؤلاء المستعمرون المحدثون يعكسون هذه الخطة ، ويحفظون السلطان فى أيديهم ، بأفناء كل صالح للحكم ، سواء فى ظل الدولة الأجنبية أو فى ظل الدولة الوطنية ، ورجاؤهم كله فى إخضاع الشعوب أن يحرموها القدرة على حكم نفسها ، بحرمانها من كل صالح للحكم ، مستقلا أو مسلوب الاستقلال تابعاً لسيده الأجنبى الذى أقامه على عرشه وأوقع بينه وبين وزرائه

خطة قديمة ترمى إلى إبقاء العلية والرؤساء، تبعتها خطة حديثة ترمى إلى إفناء هؤلاء العلية والرؤساء. وكلتا الخطتين مرسومة لغاية واحدة : هى حرمان السواد الأعظم من قدرة المقاومة ومن الخروج على السلطان الأكبر المسيطر على الجميع .

إن هؤلاء المستعمرين المحدثين لا يقولون بالبداهة إنهم يرسمون تلك الخطة لتحقيق تلك الغاية ، ولعلهم لايدركونها إدراكاً ينبعث من الإرادة ويصدر عن الفهم الصريح والروية المعقولة ، وقد علمنا من مذهبهم كيف يفسرون عملهم هذا ، وبماذا يعللون خطتهم التى لا تسمح ببقاء رأس واحد يناصى رؤوسهم ويزاحمهم على مراكزهم .

ولكننا ندع ما يقوله اللسان وما يتعلل به المتعلل وننظر إلى النتيجة الحاصلة المحققة التى لامراء فيها . فماذا تراهم كانوا يفعلون لو أنهم قصدوا فعلا بعد الروية والأمعان فى التفكير ، أن يخضعوا الرعية ويجردوها من القوة التى تعارضهم أو تناقشهم الحساب ؟ ماذا تراهم يفعلون لو أنهم أرادوا عمداً أن يتركوا المحكومين محكومين أبد الآبدين، وأن يقتلعوا من بنية الرعية جذور القدرة على الاعتراض والمحاسبة ؟ لقد كان المستعمر قديما يأمن جانب المحكومين لأن القوة التى يحاربونه بها متفرقة متنازعة . وقد أصبح المستعمر الحديث على سنة الشيوعية يأمن جانب المحكومين لأن القوة التى يحاربونه بها معدومة أو معطلة إلى زمن بعيد ، ولا ندرى أى الخطتين أسوأ وأشنع ، ولكننا ندرى على اليقين أنهما توأمان متشابهان فى أمر واحد : وهو تمكين الحاكم الأكبر من رقاب المحكومين .

* * *

ولا يخفى أن حرب الطبقات عقيدة مذهبية عند اتباع كارل ماركس قبل أن تكون خطة سياسية . لأن مذهب كارل ماركس كله قائم على تنازع الطبقات ، لا يعترف بعلاقة بينها غير علاقة العداوة والاغتصاب ، ولا يؤمن بما قررته تجارب الأمم جميعاً من تعاون الطبقات فيما بينها وتبادل النفع فى مصالحها ، وهذه عقيدة ضالة لا محل

لمناقشتها وتفنيدها فى هذه المقدمه ، وقد عرضنا غير مرة لنقدها وتفصيل أخطائها حيث تناولنا مذهب كارل ماركس بالتفصيل والتعقيب . ولكننا فى صدد الكلام على مستقبل الدوله الشيوعية ، ينبغى أن نلم إلماما عاجلا بأثر هذه الحرب الطبقية فى انتظام المجتمع ، وتنسيق أعماله ، وقيام بنيانه ، وتقرير حظه من الدوام . إذ كان حرمان المجتمع من تبادل الجهود مخلا لا محاولة بانتظامه ، منتقصاً من عوامل دوامه ، ومتى ثبت بالتجربة الطويلة أن الجهود متبادله والكفايات منوعه وأن :

الناس للناس من بدو ومن حضر

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

كما قال حكيم المعرة — فذهاب هذا التبادل داعٍ من دواعى النقص والعجز لابد ان تظهر عواقبه مع الزمن ، كما يظهر كل نقص يتغلغل فى بنية المجتمع ، ولا يتأتى تعويضه بغير الرجعة إلى النظام القويم

ومن التعجل فى الحكم على هذه المسائل الخطيرة أن ننظر إلى التنازع بين الطبقات، ولا ننظر معه إلى التعاون بينها ، وإلى حاجة كل منها إلى الطبقة الأخرى ، فأن تنازع الأفراد لعلى أشد مايكون بين أبناء الأمم، فلم يكن مع ذلك مانعاً لهم أن يشعروا بحاجة بعضهم إلى بعض ، وأن

ينتفعوا بسداد هذه الحاجة من جملة أعمالهم ومحاولاتهم ، ومنها أعمال التنازع والتنافس التى تتعادل آثارها أحياناً وآثار التعاون المقصود

إلا أن الشيوعيين ينخدعون بسهولة التسلط على الطبقة التى يسمونها طبقة الصعاليك ، ويغترون بما يلوح لهم فى مبدأ الأمر أنه حالة دائمة مستقرة ، فيمعنون فى حرب الطبقات ، ويقولون إنهم يزيلون بهذه الحرب أعداء المجتمع ممن يسمونهم بالغاصبين والمستغلين ، ويغريهم بالتمادى فى خطة هذا الاستعمار الحديث أنهم يجدون منه مساعدات كثيرة ولا يتبينون ماوراء هذه المساعدات من عوامل المناوأة أو المقاومة المؤجلة إلى حينها .

إحدى هذه المساعدات الكثيرة ، أن طبقة الصعاليك مقصورة المطالب على ضرورات مادية لا يعجز الحاكم عن تدبيرها ، وإن يكن قليل النصيب من كفاية الحكم وحسن السياسة والتدبير ، وفى وسعه إذا دبر هذه المطالب المقصورة على الضرورات المادية ، أن يغلو مايشاء فى الحجر على حرية الآراء ، والحد من نشاط المفكرين وأصحاب المشاركة فى الشئون السياسية. وقد يسترسل فى هذا الغلو ويمعن فى هذا الاستبداد زمناً طويلا ولا يحس من رعيته ضجراً ولا علامة على الشعور بالحرمان من تلك الحرية ، التى تعد من مقومات الحياة الاجتماعية فى كل بيئة

متعددة الطبقـات متنوعة المزايا والكفايات . ولسنا نعتقد أن الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك محرومة من المطالب الروحية والأشواق النفسية ، بل لا نعتقد أن إنساناً قط يحرم هذه الأشواق طول حياته إن جاز أن يحرمها فترة من الزمن . غـــير أن طبقتهم المسماة بالصعاليك ترضيهم بسهولة خـداعها وتزييف مطالبها الروحية وتتقبل منهم الدعاية المغشوشة ، فلا يتيسر لها ان تميز بين تلك الدعاية وبين الحقيقة المخدوعة عنها ، وربما طال الأجل على هذه الخديعة مالم نقطعها على الحاكمين والمحكومين أزمة دائمة تشغلهم عن مطالب الروح والجسد على السواء ، وتتيح للحاكمين متنفساً من الوقت لا يضيرهم فيه أن يثوب محكوموهم إلى ضرب من العزاء الروحى يأتيهم عفو الساعة من وحى الظروف .

ومساعدة أخرى من هـــذه المساعدات الكثيرة يلقاها الحاكمون المستبدون من طبقة الصعاليك تملى لهم فى الطغيان وتغمض العيون عما يقترفون من العسف والجبروت ، ولو أفضى إلى إهدار الأرواح وسفك الدماء . . . تلك المساعـدة هى طوية الحسد والنقمة التى ينطوى عليها أناس كثيرون من المحرومين والوضعاء ، وتقترن بها رذيلة القحة وحب التطاول على من يفضلونهم بالجاه أوالمعرفة ، كما تقترن بها نزعة التشفى من كل عزيز يهان على مرأى من قوم طال عليهم احتمال الهوان.

وقد يطيل فى أجل هذه المساعدات أن تنحصر الأمة وراء حدودها ، وتنقطع المعاملة الشعبية بينها وبين جيرانها ، فلا يعسر على الحاكم أن يصور لها حالتها وحالة أولئك الجيران على الصورة التى ترضيها .

ولا نظن أن هـذه المساعدات من شأنها أن تدوم طويلا بالقياس إلى أعمار الأمم أو إلى عهود النظم الحكومية ، فأن الحقبة التى مرت على النظام الشيوعى بعد القضاء على النبلاء والأثرياء لم تزد على عشرين سنة . ولم تخل هـــذه السنون العشرون مع ذلك من المذابح التى كان ضحاياها أجمعين من صميم طبقة الصعاليك أو ممن ينعتون أنفسهم بهذا النعت وينتسبون إلى تلك الطبقـة لأنهم لا يستطيعون أن ينتسبوا إلى طبقة غيرها .

غير أن الحالة لم تبلغ بعد مبلغ الحرج الشديد الذى يزلزل دعائم الحكم ويطيح بالحاكم فى دفعة جارفة من ثورة الجماهير . ولهذا ثابر المستعمرون المحدثون على خطتهم ، واستمرأوا مغبـة جبروتهم ، وراحوا يطبقون تلك الخطة على كل أمة دخلوا فيها وأخذوا بزمام حكومتها ، وقد أخذوا بزمام الحكومة فى بلاد تفضل بلادهم علماً وحضارة كبلاد بحر البلطيق ، وأولهـا بلاد فنلندا التى خلت من الأميين واتسعت على ضيقها لعدد من الجامعات ينافس الجامعات الروسية . وجاء فى تقريرات بعض الولاة

الروسيين المشرفين على حكومات بحر البلطيق أنهم وجدوا طوائف المتعلمين وأبناء الطبقات المتوسطة فى هذه الأمم ساخطين محنقين لا تؤمن ثورتهم على النظام القائم بين حين وحين ، واقترح الولاة الشيوعيون فى تقاريرهم أن تساس تلك الطوائف بالهوادة ، وأن تمنح بعض الحقوق التى تعودتها ولا ينسى إخضاعها مع حرمانها منها ، فكان جواب المراجع العليا فى الكرملين أنهم قرّعوا كتاب تلك التقارير واتهموهم بجهل المذهب الماركسى أو بخيانة المبادىء الشيوعية ، لأن هـذه المبادىء لا تعرف شيئاً يسمى طوائف المتعلمين أو طبقة المتوسطين وإنما تعرف شيئاً واحداً هو الذى يسمونه طبقة الصعاليك .

ومما كشفه أولئك المستعمرون المحدثون من مساعدات حرب الطبقات لهم ، أنهم وجدوا فيها أسلوباً حاضراً من أساليب الدعاية دفاعا عن استعمارهم للبلاد الغربية عنهم كالبلاد المجرية أو الرومانية أو البولونية ، فلم يكن أيسر عليهم من اتهام الثائرين على طغيانهم بأنهم بقية من بقايا طبقات الأشراف والنبلاء ، أو من يطلقون عليهم فى تلك الدعاية اسم الاقطاعيين ... وإنهم ليسرفون فى دعايتهم هذه إسرافا يغرى بالضحك لولا أنها مضحكات مبكيات ، وكذلك فعلوا فى دفاعهم عن طغيانهم وعجزهم الذى أثار عليهم طبقة العمال والصناع فى بولونيا والمجر ، فإن العالم

أجمع كان يتلقى أخبار الاضراب فى المناجم والمصانع ، ويعلم من فواه المهاجرين إلى البلاد الاوروبية أنهم جميعاً من صميم الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك ، ثم يقف وكلاء الدولة الروسية فى هيئات الأمم ،فلا يفتح عليهم بدفاع يسوغون به حكمهم لأقوام لا تريدهم ولا تقبلهم ، ولا تسعد فى ظلهم — إلا بذلك الدفاع المضحك الذى يدور ثم يدور فى نطاق واحد : وهو أن أولئك الصعاليك بقيـــة من بقايا النبلاء والمستغلين والاقطاعيين المبعدين ، ولم نسمع قط حتى من أولئك الشيوعيين المحدثين أنهم قبضوا على ثائر واحد يصح أن ينتمى إلى طبقات النبلاء وأصحاب الاقطاع ، بل كان الثائرون المقبوض عليهم المنفيون عن بلادهم ألوفا من ذوى الصناعات اليدوية ومن الشبان الناشئين الذين نشأوا بعد زوال كل بيت من بيوت الأسر العريقة وتعلموا بعد قيام الشيوعية فى أوروبة الوسطى بعدة سنوات .

* * *

إلى هنا نحن فى صميم الحاضر الذى بين أيدينا لا نتطلع إلى نبوءة من وراء الحجاب ، اللهم إلا أن نمد البصر مستنبئين عما وراء ذلك الحجاب الذى يسمى تارة بالسد الحديدى ، ويسمى تارة أخرى بالستار الكثيف .

نحن فى صميم الحاضر فيما أجملنا الكلام عليه آنفاً ، فماذا نرى لو أننا

مددنا البصر إلى المستقبل القريب ثم إلى المستقبل البعيد ؟ .

علامتان ناطقتان تدلان على أن دوام هذه الحال من المحال ، وأن بقاء مجتمع من المجتمعات فى طبقة واحدة أمر لم يتحقق من قبل ، ولا نرى من التجربة التى دامت فى بلاد الروس اكثر من أربعين سنة أنه قابل للتحقيق فى هذا الزمان .

وهما علامتان يبدو من ظاهرهما أنهما نقيضان متباعدان ، ويبدو بعد نظرة يسيرة أنهما فى باطن الأمر علامة واحدة منظورة من وجهين .

العلامة الأولى : طول العهد الذى تولى فيه ستالين حكم البلاد الروسية منفرداً بغير شريك .

والعلامة الثانية : موقف أتباعه بعد موته بنحو ثلاث سنوات ، واضطرارهم لمصارحة الشعب الروسى ومصارحة العالم كله بسوء حكم ستالين ، الذى عاونوه عليه واشتركوا فيه ، وكانوا طوال عهده أدواته الطيعة فى تنفيذ مراميه .

فالعهد الطويل الذى قضاه ستالين حاكماً مستبداً ، مستأثراً بالطغيان الذى لا طغيان بعده على بلاد الروس جميعاً — دليل قاطع على بطلان

النظام الحكومى من أساسه ، لأن هذا الأساس قائم على حرب الطبقات واستئصال كل طبقة فى المجتمع ماعدا الطبقة المسماة بطبقة الصعاليك، وترجع هذه النزعة إلى إعتقادهم أن رءوس الأموال هى التى تخلق الطبقات الاجتماعية ، وهى التى تمكن أصحاب الأموال من تسخير من عداها من الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة على الأجمال. فإذا زالت رءوس الأموال ، زالت الطبقات الحاكمة المستغلة ، وزالت معها ذريعة الطغيان والاستبداد ، وتعذر على الطبقة العليا — فضلا عن الفرد الواحد — أن تستبد بمن دونها من أبناء الأمة .

ولو كان هذا صحيحاً لما استطاع ستالين أن يحكم روسيا زهاء ثلث قرن بعد القضاء على رءوس الأموال ، واستئصال الملايين من أصحابها وحصر المجتمع كله فى تلك الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك .

وقد ألمعنا إلى هذه الملاحظة ، فى مقدمتنا على الخطاب الذى ألقاه خليفة ستالين منددا بسياسته فى مؤتمر الحزب العشرين .

فسألنا : (كيف استطاع ستالين أن يستبد هذا الاستبداد فى مجتمع زالت منه رءوس الأموال ؟ كيف استطاع أن يجمع فى يديه سلطاناً لم يستطعه قيصر ، ولا شاهنشاه ، ولا حاكم بأمره من طغاة القرون الأولى.؟ بالدهاء الشخصى يستطاع هـــذا فى بلد زالت منه رءوس الأموال ؟

أبالنفوذ السياسى يستطاع هذا فى ظل مذهب يقال فيه إن النفوذ السياسى كله تبع للمنافع الاقتصادية ؟ وأن السياسة وحدها لاتوصل إلى شىء من النفوذ حيث يكون رأس المال أو حيث لا يكون ؟ وإذا كانت المنافع الاقتصادية تتيح لفرد واحد أن يستبد هذا الاستبداد على الرغم من أنوف الأقطاب والأنداد فى بلاده — فماذا تبلغ العيوب التى تثيرنا من رأس المال إلى جانب هذا الشر المستطير الذى يهون عنده كل مافى رأس المال من الشرور ؟ لقد استطاع ستالين أن يستبد بالرأى وأن يضرب بأقوال القواد والسفراء والخبراء عرض الحائط فى خطب من أعظم الخطوب التى تهدد سلامة بلاده: وهو خطب الغزوة الالمانية . لأنه اعتقد أن الأخبار التى تصل اليه من الخارج عن قرب الشروع فى هذه الغزوة ملفقة لاستدراجه إلى الحرب ، ولم يكلف نفسه عناء المراجعة لتصحيح هذا الاعتقاد ، اكتفاء بتقريره أو تخمينه الذى لايخيب فى ظنه ، وأصر على تكذيب النذر المتوالية بابتداء الغزوة إلى مابعد ابتدائها واقتحام الجيوش الالمانية للحدود الروسية . وقد استطاع فى الشئون الداخلية أن يستبد فيها استبداداً أشد من هذا الاستبداد ، لانه قتل نحو سبعين فى المائة من أعضاء لجنة الحزب المركزية التى يتولى باسمها مركزه فى الحزب وفى الحكومة . ومن كلام خروشيشف عن عنادستالين فى أمر الغزوة الألمانية بعد سرد النذر التى توالت عليه من الخارج والداخل

قوله فى خطابه كما جاء فى ترجمته العربية : «وكتب كوربنوس الذى كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية — وقد قتل فيما بعد أثناء وجوده بالجبهة — إلى ستالين يقول إن الجيوش الألمانية وصلت إلى نهرباج وأنها تتهيأ لشن الهجوم وأنه من المحتمل أن تقوم بهذا الهجوم فى القريب العاجل ، وقد اقترح كوربنوس فى هذا المقام تنظيم دفاع قوى ... ولكن موسكو أجابت على هذه الاقتراحات بأن تنفيذها يعتبر استفزازاً وأنه ينبغى عدم الأقدام على اتخاذ أية استعدادات دفاعية على الحدود حتى لا نتيح للألمان فرصة التذرع بأى سبب للقيام بعمل عسكرى ضدنا . » . . . أما طغيانه فى الشئون الداخلية ، ففى الخطاب كلام مسهب عنه يطلع عليه القارىء فى مكان الترجمة ، وخلاصته كما جاء فى الخطاب أنه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر ، ثمانية وتسعون اعتقلوا وأعدموا رمياً بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على الخصوص . . . ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ، ولكنه كان مصير غالبية المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر فمن ١٩٦٦ مندوباً كانوا يملكون حق الاشتراك فى الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية ألقى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة . . . »

هذه نبذة من خطاب خليفة ستالين ـ خروشيشيف ـ تجمل لنا تفصيلاته عن مدى تلك السيطرة التي حضرها طاغية الشيوعية بين يديه فى حكمه لمئات الملايين من بنى آدم واستبداده بأمورهم العامة والخاصة التى تتعلق بها سلامة الأمة بحذافيرها وسلامة الأفراد متفرقين . فكيف تهيأ لفرد واحد أن يجمع هـــذه السيطرة بين يديه فى بلاد زالت منها رءوس الأموال ؟ مهما يحاول جماعة المكابرين والمغالطين من دعاة المذهب فى تفسير هذه الظاهرة ، فخلاصتها التى لاريب فيها أن الاستبداد فى أقبح صوره ممكن بعد زوال الطبقات وقيام طبقة واحدة فى المجتمع بأسره .

وقد سمح كارل ماركس لنفسه بالحكم على مجتمع الصناعة الكبرى فى أوروبة الغربية ولما ينقض عليه ثلاثون سنة، فلا تثريب علينا إذا حكمنا على مجتمع الطبقة الواحدة بالزوال ، بعدهذه التجربة التى لا تقبل التفسير بعلة من علل المكابرين المغالطين ، ولا تفسير لها إلا أن حكاية الطبقة الواحدة خرافة من خرافات الخيال السقيم والطبع الوخيم .

هذه العلامة تؤيدها علامة ثانية من موقف أتباع ستالين بعد أن اضطرتهم الحوادث إلى كشف النقاب عن هذه الفضيحة ، والتشهير بالعهد الاستالينى ، وهو فى الواقع عهدهم أجمعين ، كلما اعتذروا بعذر فيه من أعذار الاضطرار أو الاختيار ، كان هـذا العذر أدعى إلى إلصاق تبعة بهم من الصمت والروغان .

فى البلاد الديمقراطية يحدث كثيراً أن تسقط حكومة وتقوم على أعقابها حكومة أخرى من حزب آخر تلومها وتنحى عليها وتعد الأمة بتصحيح أخطائها وتعديل برامجها وإجتناب أساليبها فى تدبير المصالح العامة . ولا يدل ذلك على تداعى النظام الحكومى ، أو على بطلان القواعد الدستورية التى تتعاقب الوزارات على أساسها . فإن طبيعة الديمقراطية تجعل هذا التحول طريقاً واحداً من طرق الحكم يتعاقب عليه السالكون ولا يدعو الأمر إلى الخروج من ذلك الطريق .

أما أن يحدث فى الحزب الواحد والمذهب الواحد والعهد الواحد تبديل كذلك التبديل فى مناهج الحكم ، فهو نقض صريح للقواعد التى يقوم عليها النظام ولاتحتمل التبديل إلا بشمول هذا التبديل للمذهب كله .

وقد كان موقف الخلفاء المشاركين لستالين فى عهده ، والناقمين عليه بعد ذهابه ، علامة أخرى على وجوب تبديل ذلك المذهب وتبديل القواعد التى يقوم عليها . فإنه موقف طبقة حاكمة لا أكثر ولا أقل جمعت بين أيديها أزمة السلطان ، واستأثرت بها دون الملايين من الرعايا الغافلين عما يجرى فى دواوين الحكومة أو فى برامجها العامة . فقد كان قيام الصناعة الكبرى سبباً لظهور طبقة جديدة أقوى نفوذاً من طبقة

رأس المال فى البلاد الأخرى ، وأرسخ قدما فى دواوين الحكم من كل حكومة دستورية تحتل كراسى الدولة مع بقاء رءوس الأموال ، سواء بقيت فى أيدى الأفراد أو أيدى الشركات .

* * *

ونحسب أن القارىء يتعجلنا الآن ولا ينتظر نبوءة المستقبل لنكشف بها عما هو حاصل غنى عن النبوءات ، فلا حرج علينا من أن نقول بغير تردد إن الحالة فى روسيا لم تدم كما أرادوها أن تدوم ، ويغنينا عن النبوءات الجزاف فوق هذا ، أنه ما من قارىء فى العصر الحاضر يجهل أن المذهب الماركسى لم يقم قط فى البلاد الروسية منذ ثورتها الكبرى وأنه لم يزل يتحول ويتبدل عاما بعد عام حتى لو رآه كارل ماركس — بل لو رآه لينين — فى هذه الأيام لما عرفه ، ولا عرف أن النظام القائم فى البلاد تطبيق للمبادىء والبرامج التى دعا إليها ماركس وتبسط فيها لينين فقد سمحوا بإقامة الشعائر الدينية وسمحوا بملك الأرض وتوريثها للأعقاب ، وسمحوا بتقدير الأثمان وتسعير السلع من الكماليات والضروريات ، وسمحوا بتفاوت الأجور وأحوال المعيشة بين طبقة العمال أنفسهم ، فضلا عن طبقة الخبراء والحكام ، وسمحوا بالفرق الكبير فى جرايات الطعام وأماكن السكنى ودرجات التشريف والتعظيم ،

بل سمحوا بالفرق فى درجات السكك الحديدية ووسائل المواصلات ، ولم يتركوا شيئاً واحداً يتساوى فيه أبناء الطبقة العاملة إلا مايتساوى فيه أبناء هذه الطبقة فى جميع الأقطار سواء كانت من الأقطار الديمقراطية أو الفاشية أو التى تنتحل الاشتراكية باسم من مختلف الأسماء .

ولا ننسى أن زوال الطبقات كان فى رأى الماركسيين نهاية مقدورة لأمم العالم بأسره ، وليست مقصورة على أمة واحدة تنتحل الشيوعية وحولها من يدين بغير هـــذا المذهب ، أو من يعارضه ويعمل على إسقاطه .

ولا ننسى كذلك أن قيام نظام يهدد النظم المجاورة له ، مستحيل مالم يتحول أحد النظاميين عن غايته . فلا مناص من تحول بلاد الروس عن الشيوعية ، أو تحول البلاد الأخرى عن المذاهب التى تقاومها وتعاديها ، وقد فطن ولاة الأمر فى روسيا إلى هذه الحقيقة ، فعملوا جهدهم فى الدعاية والدسيسة لتحويل أمم العالم عن نظمها الاجتماعية ، لأنهم أيقنوا أن دوام نظامهم مستحيل كما أسلفنا ، مع دوام النظم الاجتماعية الأخرى . فالآن يشعر ولاة الأمر فى البلاد الروسية بالحيرة الشديدة بين أتباع تلك السياسة وبين العدول عنها ، لأنهم وجدوا أن إثارة الأمم المخالفة لهم فى النظم الاجتماعية تثير عليهم حرباً شعواء من جميع تلك

الأمم ، وتقيم بينهم وبينها حواجز من العداوات وضروب الحجر الاقتصادى والسياسى لا تطيقها أمة فى هذا الزمن الذى اشتبكت فيه العلاقات واتصلت المعاملات .

هذا مع أن اضطرارهم هم أنفسهم إلى التحول عن مبادئهم — خليق أن يجعل العدول عن سياسة الدعاية العدائية ضرورة مساوية على الأقل لضرورة الاجتهاد فى تحويل العالم بأسره إلى نظام الشيوعية ، وبخاصة بعد أن ثبت لهم أنهم عاجزون عن إقامة ذلك النظام بمبادئه المقررة عندهم ، فهم أحرى أن يعجزوا عن إقامته عند غيرهم ، ولا سيما إذا كانت محاولة ذلك كمحاولة إعلان الحرب على عشرات من الدول والحكومات والشعوب .

وآخر ما اهتدوا إليه من مخرج للتخلص من هذه الحيرة ، أنهم أعلنوا حل الكومنترن ، واستبدلوا به هيئة الكومنفورم ، ثم أعلنوا حل الكومنفورم وزعموا أنهم بمعزل عن أحزاب الشيوعية خارج البلاد الروسية ؛ إلا أن تكون الرابطة بينهم كافة من قبيل الرابطة بين أصحاب الرأى المشتركين فى الأمل والشعور .

لابد إذن من تحول روسيا عن الشيوعية ، أو تحول العالم بأسره إلى الشيوعية ، وقد رأينا أن الروسيا « تتحول ، وأنها تبتعد عن

مذهب كارل ماركس قبل أن يقترب منه سواها . فمن علامات الحاضر التى تنبىء عن المستقبل نبأ اليقين أن مصير روسيا فى غير اتجاه الشيوعية ، وأن مصير الشيوعية نفسها إلى الزوال ، ويعجل بزوالها أنها مذهب متطرف غاية التطرف لا يقبل التوسط بين الطرفين . فإن قبل التوسط بين آراء كارل ماركس وغيرها من الآراء الاجتماعية ، فتلك هى الاشتراكية المعتدله ، أو تلك هى الاشتراكية الديموقراطية التى تدين بها أكثر شعوب العالم فى العصر الحاضر ، وتستطيع أن تتوسع فيها ، وتمعن فى تنفيذها حيث يعجز المتعصبون للمذهب الشيوعى الماركسى عن تنفيذ ما هم مصرون عليه متشبثون معه بتعلات الأوهام والاحلام .

* * *

مستقبل روسيا الاجتماعى إذن فى غير اتجاه الشيوعية ، ولعلها ترجع إلى الاشتراكية المعتدلة يوم تكون الشعوب الأخرى قد تقدمت إلى هذه الاشتراكية بخطوات أثبت من خطوات الشيوعيين وأولى منها بالنجاح والدوام .

مستقبلها الاجتماعى فى غير الاتجاه الشيوعى ... فما هو مستقبلها السياسى ياترى فى محيط العلاقات الدولية ؟

قبل عشرين سنة كان من المظنون أن العاطفة الشيوعية وحدها، كافية لتوثيق عرى الصداقة بينها وبين الأمم التى دخلت فى حظيرة الدولة الروسية بالقوة أو بالمساومة، وكان من المظنون أن تلك الأمم ترضى بحكم الروس لها لأنها شيوعية وهم شيوعيون، كما كان أبناء القرون الوسطى يرضون بالخضوع لغيرهم لأنهم من أتباع دينهم أو عقيدتهم.

فأما والعقيدة الشيوعية لا تستقر على قرار، ولا توثق عرى الصداقة بين قادتها ومريديها فى بلادهم، فمن التعلق بالمحال أن يقوم عليها أمل القوم فى تمكين الامبراطورية الروسية من إخضاع جيرانها المحيطين بهم لأنها شيوعية وهم شيوعيون، وأدعى من ذلك إلى توهين ذلك الأمل أن الحكومة الروسية عجزت عن إقناع الخاضعين لها بحظهم من المعيشة بعد أن عجزت عن اقناعهم بالرأى والعقيدة، فلا هم مستقلون ينعمون بفخر الاستقلال، ولا هم راضون عن معيشتهم يتعزون بها عن ضياع استقلالهم، ولا هم مؤمنون بحق الروس فى السيطرة عليهم والارتفاع فوق كواهلهم، فلا جرم نرى فى كل مكان يحيط بالدولة الروسية من جيرانها الخاضعين لها بوادر القلق والاضطراب بل بوادر الفتنة والثورة، بل الثورة الجامحة التى تختبو اليوم حتى تنفجر بعد أيام.

وربما كان شأن الدول المستغلة التى تصادق روسيا ، ويحسبها من يغتر بالأسماء فى عداد الشيوعيين ، أخطر على الدولة الروسية من جيرانها الخاضعين لسيادتها على صورة من صور الخضوع المختلفة ... ولنضرب المثل بأكبر هذه الدول وهى دولة الصين الحمراء فى غرف المغترين بالأسماء . . ! فهذه الدولة الحمراء أخطر على سادة الكرملين من المجر والبلغار والبولونيين .

هل يطمئن سادة الكرملين إلى تقوية الصين وتعزيز مواردها الصناعية ؟ إنهم إن فعلوا ذلك خلقوا الى جانبهم ماردآ يسحقهم بأقدامهم أو يغطى بنفوذه السياسى على نفوذهم فى محيط السياسة الدولية .

هل يجهر سادة الكرملين بالحذر من ذلك الخطر ، ويعملون جهرة أو سرآ على إضعافه وتعويق نهوضه ؟ إنهم إذن يدفعون به إلى أحضان الدول التى تعاونه إذا أحجموا هم عن معاونته ولو من قبيل النكاية بأعدائهم سادة الكرملين . ولا يفوتن أحداً أن الصين قد سبقت الروسيا الحمراء الى مفارقة المذهب الماركسى ، لأنها بدأت ثورتها باصطناع الفلاحين ، وتوزيع الأرض عليهم ، وجعلتهم ملاكا للأرض الزراعية ، يحاربون الشيوعية الماركسية لو أنها فرضت عليهم ، إلا أن تؤول إلى مذهب من مذاهب الاشتراكية المعتدلة .

فأذا كانت الروسيا الاجتماعية صائرة إلى غير الشيوعية ، فالروسيا الامبراطورية لاتثبت على قدمين راسختين ، ولا يسعها أن تحشد فى معترك السياسة قوة تضارع فى موقف الخطر قوى المعسكر المناوىء لمعسكرها .

ومن يدرى ؟ .... لعلها تنشق غداً عن عشرات من الأمارات والولايات المتحدة كما كانت قبل أن توحدها فتوح القياصرة .

ومن يدرى ؟ لعل روسيا الحمراء ستصبح بين الأمم بيضاء ناصعة البياض حين يحمر غيرها بعض الاحمرار إذا جاز أن توصف الاشتراكية البسارية بالصبغة الحمراء .

وبعيدٌ جداً أن تعود روسيا إلى القيصرية ، وغير قريب أن تعود إلى نظام رأس المال كما يعهده العالم بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

أما ماهو أبعد من هذا أو ذاك فهو أن يقوم مستقبل روسيا على الشيوعية أو على الامبراطورية الواسعة باسم الشيوعية .

والله أعلم بالغيب والشهادة .

* * *

وبعد ، فأن الرأى الذى بسطته هذه الرسالة عن مستقبل روسيا ،

قد شرحه بطبيعة الحال مؤلفها كما بدا له من تجاربة الكثيرة ومشاهداته القريبة ، وهى التجارب والمشاهدات التى تؤهله لها معاشرته الطويلة لولاة الأمر فى البلاد الروسية ، واختلاطه عن كثب بجمهرة الشعب هناك من المثقفين وعامة الدهماء . ونحن لانقدم لهذه الرسائل لنؤيد مؤلفيها فى آرائهم ، أو نرجح وجهة نظرهم على غيرها من وجهات النظر المتضاربة ، ولكننا إنما نقدم لها لنحيطها بأطار من الآراء المتداولة فى موضوعاتها،والآراء التى يلوح لنا أنها أدنى من سواها إلى القبول ومطابقة الاحوال ، ثم يأتى رأى مؤلف الرسالة بوجهة نظر من وجهات نظر شتى يقرنها من شاء بما عداها ليرجح ماشاء بين مذاهبها المتشعبة .

على أننا نحسب أن الاستاذ ليونارد شابيرو ، مؤلف هذه الرسالة ، لم يناقض رأيا من الآراء الراجحة فى نظرته إلى مستقبل روسيا ، بل رسم لهذا المستقبل طريقين يوافقان وجهات النظر جميعا ، لأنه وكل الحكم على مستقبل الأمة إلى قوتين متعارضتين فى الغاية والخطة : وهما القوة المتمثلة فى ولاة الأمر وأصحاب السيطرة الفعلية على حكومة البلاد ، ثم القوة المتمثلة فى الشعب المحكوم والجمهرة الغالبة من سواد الرعية ، وفى مقدمتهم جمهرة المثقفين والمستنيرين ، وكلتا القوتين ، كما تراءى للمولف ، ترمى إلى غاية لابد أن تقاطع الغاية الأخرى فى يوم من الأيام ، لأن ولاة الأمر يهتمون بالتسليح واستبقاء السلطان فى

أيديهم ، بمسابقه الدول الكبرى فى أنواع السلاح . وليست هذه غاية يكترث لها الشعب الراغب فى رخاء العيش واستقرار السلام وإقامة العلاقات بين بلاده وسائر بلاد العالم على أسس المودة وتبادل المعاملات بالحسنى .

قال المؤلف الخبير « إذا نظرنا إلى المستقبل ، وهو ما يعنينا النظر إليه ، رأينا سمتين بارزتين توحيان بأن المعارضة الكامنة للنظام قد تكتسب تأثيراً وأهمية كافيتين لأحداث تغيير فى طبيعة ذلك النظام ، وأنها إما أن تنأى بالدكتاتورية عن الانسياق مع تيار الأفكار المتطرفة المستولية عليها ، أو ترغمها على فسح الطريق لنظام من أنظمة الحكم أقرب إلى المعقول »

ثم قال : « إن مصلحة الدكتاتورية ستتعارض فى النهاية مع مصالح الطبقة الوحيدة التى ترتكز عليها لدوام بقائها — وهى طبقة الارستقراطية المتخصصة — والدكتاتورية ، مدفوعة بدافع سياسة الصراع الدينمى ، وهو ميراث النظرية الماركسية ، بسعيها لأذاعة الشيوعية فى العالم — تتجه إلى التوسع ، وتزيد التوتر الدولى نتيجة لذلك ، ومعنى هذا انخفاض مستوى المعيشة لاحتمال أعباء التسليح ، وتغذية حمى الحرب لتسويغ حاجة الحكومة المستمرة (إلى الكبح والشدة) ولكن الصفوة التى

تعتمد الحكومة الشيوعية عليها ، والتى تمدها بالقوة والكفاية اللتين تدين لهما بالبقاء ، ليس لها مثل هذا الهدف الدينامى ، ومصالحها على النقيض من ذلك هى السلام مع العالم الخارجى ، وتراخى التوتر العالمى تبعاً لذلك ، وتقليل نفقات التسليح لمعالجة مستوى المعيشة المنخفض ، وربما تكون طبقة المتخصصين صاحبة الامتيازات أو الضباط فى روسيا السوفيتية لم تتحقق بعد من وجود هذا التناقض فى الأهداف ، وربما كانوا لايزالون يعتقدون كما قيل لهم مراراً وتكراراً خلال سبع وثلاثين سنة ، أن هدف العالم الحر هو تحطيم روسيا وتقطيع أوصالها . ولكن فى اليوم الذى يعرفون فيه أنه ليس هناك عداء بينهم وبين العالم الحر ، وأن الذى يهدد مصالحهم ليس هو الغرب الرأسمالى وإنما هم حكامهم الشيوعيون ، تظهر فى الاتحاد السوفييتى قوة جديده غير منتظره ، وواجب الغرب أن يبذل ما يستطيع لتقريب ساعة اليقظة للأبقاء على السلام والحريه .

هذا هو محور الصراع الذى يتوقف مستقبل روسيا على نتيجته ، وكل ماذكره المؤلف فى هذه النبذة الموجزة صحيح متفق عليه ، ولكنه جانب واحد ، يقابله جانب آخر لايقل عنه فى الخطر وفى القدرة على توجيه مستقبل الدولة الروسية والأمة الروسية على السواء .

ذلك الجانب الآخر الذى لم يظفر من مؤلفنا بمثل اهتمامه بمحور الصراع الداخلى بين الشعب وحكومته ـ هو ذلك الموقف المستحيل بين روسيا والعالم كله ، ونقول إنه موقف مستحيل لأنه لابد أن يسفر عن تحويل روسيا للعالم عن نظمه الاجتماعية أو تحويل العالم لروسيا عن نظامها القائم فيها إلى اليوم .

إما أن تتحول روسيا فقد ذهبت اذن سطوة الدكتاتورية فيها.. وإما أن يتحول العالم فقد شملته الدكتاتورية الروسية من أقصاه إلى أقصاه، ونظرة يسيرة إلى كلا الاحتمالين كافية لترجيح هذا أو ذاك ، وعندنا أن الجانب الراجح منهما هو تحول الروسيا فى داخلها وفى علاقاتها العالمية . وهذه مقدمة تتبعها مقدمات كثيرة . وتتبع تلك المقدمات أطوار متعاقبة لا تزال اليوم وراء حجاب الغيب المجهول .

يقول المؤلف : (إن مستقبل روسيا لايمكن ان ينظر اليه بمعزل عن مستقبل سائر الانسانية ، وما دامت الشيوعية لاتكف عن الضغط على حرية رعاياها والشعوب الخاضعة لها ، فأن التهديد بالخراب الشامل لازال قائما ، ولذلك فأن سلام العالم يمكن أن يتوقف فى النهاية على تصحيح هؤلاء الذين يعيشون الآن تحت الحكم الشـــيوعى على أن يصطروا حكامهم إلى نبذ نظرية لاتؤدى إلا إلى الخراب)

أو صحيح هذا ؟

نعم : إنه لصحيح بالقدر الذى ذهب إليه المؤلف إذ قال إن سلام

العالم يمكن ان يتوقف فى النهاية على مصير روسيا . . . إلا أننا ينبغى أن نقف عند تقدير الامكان ولا نتجاوزه إلى الحتم واللزوم الذى لافكاك منه . فان العالم أكبر جداً من أن يتوقف مصيره النهائى على مصير أمة واحدة أو أمم عدة تحكمها دولة واحـــدة ، لقد تبدلت الامبراطورية الرومانية ولم يخرب العالم ، بل تجددت فيه بعدها قوى عظيمة للتعمير واستئناف ركب الحضارة على منهاج غير منهاج تلك الدولة ،وقد تبدلت الامبراطورية المقدسةوتبدلت بعدها امبراطوريات أعظم منها ولم يخرب العالم ، بل اتسعت فيه مناهج الحضارة ونشطت فيه أمم وحكومات كانت مغمورة خاملة قبل ذاك .

والحق أن المؤلف الخبير بالمسألة التى تصدى لبحثها ، لم يغفل عن ناحية واحدة من نواحيها وإن كان قد أعار بعض هـذه النواحى قسطا أوفر من الذى أعاره لغيرها .

ولعلهمن المطابقة بين خبرة المؤلف وخبرة المترجم إلى اللغة العربية أن التاريخ العصرى شاغل يسترعى عناية المؤلف الخبير والمترجم القدير ،فأهم الأستاذ على أدهم مترجم هذه الرسالة غنى عن التعريف،بما عهده قراؤه من دراساته التاريخية وثقافته الواسعة التى تأتى فلسفة التاريخ فى طليعتها وحسب القراء منه أنه استطاع أن يجعل من هذا البحث السياسى قطعة أدبية ترضى ذوق الأديب كما ترضى فكر الباحث المنقب عن تاريخ العالم فى عصره الحديث .

عباس محمود العقاد